حوليات آداب عين شمس (أبحاث المؤتمر الدولي السابع لقسم اللغة العبرية وآدابها)
(فلسطين: الماضي والحاضر والمستقبل)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

أزمة الخطاب الأدبي الصهيوني اليساري ونظريات الاستعمار
جدلية النص والأيديولوجيا: رواية "قصة عن الحب والظلام" عاموس عوز نموذجا

د. زياد محمد أسعد بني شمسه*
رئيس دائرة اللغة العربية – الإعلام التفاعلي/ دكتور وأستاذ مساعد جامعة بيت لحم– فلسطين
ziyadb@bethlehem.edu

د. نادية زياد محمد بني شمسه**
حاصلة على ماجستير دراسات أدبية – فلسفة/ مديرة مركز تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها– جامعة بيت لحم– فلسطين
nbshamsa@bethlehem.edu

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى قراءة خطاب "عاموس عوز" الأدبي الصهيوني اليساري وتحليله، والبحث عن أزمته في ظل جدليات النص والأيديولوجيا، واتخذت سردية "قصة عن الحب والظلام" نموذجا، بوصفها خطابا صهيونيا يتصف بالاستعمارية، تُجسِّد في مجملها عملا روائيا ثقافيا وأيديولوجيا يمثل رؤية استعمارية غامضة وضبابية، ترتبط بسياقات استعمارية وما بعدها محملة بمحمولات ثقافية وتاريخية ودينية، في مساع جديدة لمضامين استعمارية معلنة ومضمرة أحيانا أخرى. تكمن الإشكالية البحثية في قراءة هذا الخطاب لما يتصل بالحالة الإسرائيلية والفلسطينية في ظل الصراع القائم حول الهوية والمكان والتاريخ والتراث، من خلال دراسة نصوص تحمل أنظمة ثقافية تاريخية في ظل منظومة المؤسسة السياسية، للكشف عن المحمولات النصية اللغوية، والبحث عن العلاقة المشتركة بين النص والمجتمع وصناعة الأحداث وبناءالشخصيات والتاريخ وإدارة الصراع والهيمنة الحضارية في ظل مرحلة الاستعمار وما بعده، وهنا نقصد بالاستعمار في الخطاب الأدبي الصهيونياليساري الذي يتجاوز الاستعمار العسكري إلى الغزو الثقافي والاستعلاء التاريخي والسلطة الحضارية.

وتثير الدراسة تساؤلات منها: كيف يقدم الخطاب الأدبي الصهيوني اليساري الاستعماري خطابا مُقنّعا حضاريا وثقافيا للقارئ وللعالم في ظل تأثير السرديات الروائية الصغرى والكبرى، والأحداث التاريخية في بناء أيديولوجية الدولة الإسرائيلية وتسويقها. وللإجابة عن سؤال البحث الرئيس استعانت الدراسة بالنظرية الاستعمارية وما بعدها والنقد الثقافي. انقسمت الدراسة إلى فصلين، تناول الفصل الأول: منطلقات قراءة نص" عوز" في ظل نظريات الاستعمار . والثاني تمركز حول: الخطاب وجدلية النص والأيديولوجيا. كان من نتائج الدراسة بعد تحليل الأحداث والشخصيات والسرديات الكشف عن مخاطر (الإزاحة والإحلال) التي تتمثل في إزاحة رواياتالآخر الفلسطيني العربي ووجوده صاحب الأرض والمكان والتاريخ، وإزاحة الروايات المتعارضة، وتهميشها وإضعاف مركزيتها، وإحلال المرويّات الثقافية والتاريخية للذات اليهودية الصهيونية لتحتل (المركز أمام المهمش) و(الحضاري أمام المتخلف).

• بحث مدعوم من عمادة البحث العلمي جامعة بيت لحم

الكلمـــات المفتاحية:

الخطاب، الصهيوني، النص، الأيديولوجيا، الاستعمارية.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2024.

الفصل الأول: قراءة سردية " عاموس عوز" في ظل نظرياتالاستعمار وما بعده.

المنطلقات البحثية:

المقدمة

يُعتبر الأدب والخطاب الأدبي أحد أهم وسائل التعبير عن الهوية والتاريخ والتراث الثقافي للمجتمعات القديمة والحديثة معاً. وفي سياق النزاعات والصراعات الوطنية والدولية، يصبح الخطاب الأدبي ذا أهمية بالغة في تشكيل الرؤى والمفاهيم المجتمعية والثقافية وتوجيهها. إن تحليل الخطاب الأدبي يمكن أن يكشف عن العديد من الجوانب والأبعاد التي تتعلق بالهوية والسلطة والسياسة، وهذا هو ما نسعى لقراءته في هذه الدراسة العلمية.

حيث إن تحليل الخطاب هو أحد المنهجيات الحديثة لقراءة الخطابات المختلفة التي يتعامل فيها مع اللغة كشكل من أشكال الممارسة الاجتماعية ويفحص كيف يساهم النص والكلام في خلق السلطة الاجتماعية والسياسية. من المهم دراسة الأيديولوجيات وعلاقات القوة في الخطاب الإبداعية والأدبية. تأتي العلاقة بين اللغة والبنى الاجتماعية المختلفة من كونها الإطار الوحيد للتعبير الأيديولوجي ومن كونها ميدانًا للصراع على السلطة. لذلك يهتم تحليل الخطاب بدراسة الخطابات الأدبية والسياسية والاجتماعية لكشف أسباب عدم المساواة والتمييز ومظاهر القوة. يشير ميشيل فوكو أن "أنظمة الحقيقة" يمكن بناؤها عن طريق الخطاب. لذلك ، قد يذهب البيان الأيديولوجي إلى أبعد من هدفه المتمثل في تغيير المواقف إلى حد الدعوة إلى الفعل الراديكالي والأنطولوجي. نظرًا لأن الخطاب يتشكل من خلال علاقات القوة والأيديولوجيات، فإن تحليل الخطاب النقدي يساعد المحللين على الكشف عن الافتراضات الأيديولوجية المخفية في كلمات النصوص المكتوبة أو الشفوية أو الرمزية. التحليل النقدي للخطاب الأدبي هو تحليل للعلاقات الديالكتيكية بين وحدات الخطاب، والتي لا تشمل اللغة فحسب ، بل تشمل أيضًا الوحدات السيميائية والسياقات المتنوعة وعناصر الممارسة الاجتماعية. بالتالي يهدف تحليل الخطاب النقدي إلى شرح كيف يعكس الخطاب الأدبي والإبداعي التغيرات الاجتماعيةوالسياسية وكذلك الهيمنة في للمجتمع (محمد حسين، 2022). ونص عوز يحمل أيديولوجيات ظاهرة ومخفية؛ ظاهرة تنطلق من رؤيته اليسارية المعتدلة للصراع، وخفية تروج للصهيونية وتدافع عنها تحت سلطة اللغة والسرد وبناء الشخصيات.

تتناول هذه الدراسة العلمية قراءةخطاب الكاتب الصهيوني اليساري "عاموس عوز" وتحليله، وذلك بهدف فهم مضامين هذا الخطاب وكشف التناقضات والأزمات التي يعانيها في ظل التناقضات النصية والأيديولوجية، ويُعد خطاب عوز الأدبيمثيرًا للاهتمام، حيث يتخذ سردية "قصة عن الحب والظلام" نموذجاً له. تقدم هذه السردية خطابًا استعماريًا، يمزج بين العناصر الثقافية والتاريخية والدينية، مما يجعله غامضًا ومعقدًا. يُعتقد أن هذا الخطاب يمثل رؤية استعمارية برؤية جديدة ترتبط بالسياقات الاجتماعية والثقافية والتاريخية لفلسطين وإسرائيل. وحيث تندرج الإشكالية البحثية لهذه الدراسة في محاولة تحليل هذا الخطاب وفهم ما يتعلق بالحالة الإسرائيلية والفلسطينية في ظل الصراع المستمر بينهما، والذي يتعلق بالهوية والمكان والتاريخ والتراث.

تهدف الدراسة إلى قراءة الدلالات النصية والبحث عن العلاقة المشتركة بين النص الأدبي والمجتمع، وكيف يتم تشكيل الشخصيات والتاريخ وإدارة الصراع في هذا السياق.

وفي هذا السياق الدراسي البحثي، تطرح الدراسةتساؤلات عدة مهمة، منها:

1. كيف يقدم الخطاب الأدبي الصهيوني اليساري خطابًا مُقنّعًا حضاريًا وثقافيًا للقراء وللعالم؟
2. ما هو تأثير السرديات الروائية والأحداث التاريخية في بناء أيديولوجية الدولة الإسرائيلية وترويجها؟ وللإجابة على هذه التساؤلات، تعتمد الدراسة على نظريات الاستعمار والنقد الثقافي. وقد تُقسم الدراسة إلى فصلين رئيسيين. يتناول الفصل الأول منطلقات قراءة نص "عوز" في سياق نظريات الاستعمار، في حين يتمحور الفصل الثاني حول الخطاب وجدلية النص والأيديولوجيا.

أهمية الدراسة

1. تعدّ الدراسات والمقاربات الاستعمارية وما بعدها علامة معرفية بارزة، وحقلا من حقول الدراسات الثقافية التي نشأت في زمنالحداثة في تحليل الخطاب، في ظل نظرية " الاستعماروما بعده" التي تطرح "مجموعة من الإشكاليات الجوهرية التي تتعلق بالاستغراب من جهة، وتتعرض لعلاقة الأنا والآخر، أو علاقة الشرق بالغرب، أو علاقة الهامش بالمركز، أو علاقة المستعمِر بالشعوب المستعمرَة الضعيفة من جهة أخرى" (حمداوي،2018، ص.58).
2. هذه السردية السيرية الروائية *(قصة عن الحبّ والظلام)* تطرح علاقات متشابكة، وإشكاليات جوهرية تتصل بعلاقة (الأنا والآخر)، وجدلية (المركز والهامش)، وعلاقة (المستعمِر بالمستعمَر)، و(التابع والمتبوع)..، في ظلّ مقاربات الحداثة وما بعدها كالمقاربات الثقافية والاجتماعية والسياسية والتاريخية التي تحدد هذه العلاقات وتشابكها.

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى:

1. تحليل الخطاب الأدبي الصهيوني اليساري في أعمال الروائي "عاموس عوز" سردية *" قصة عن الحب والظلام"* التي صدرت باللغة العبرية سنة 2002م، فيما يزيد على سبعمائة وستين صفحة، وترجمها إلى العربية جميل غنايم الطبعة الأولى عن دار الجمل 2010م.وهي رواية سيرة ذاتية تتحدث عن الطفل عوز وعائلته المهجرة، ويتجسد فيها المكان(المهجر: أوديسا، ليتوانيا، ألمانيا، القدس شرقية وغربية، عربية ويهودية، يافا..) والهوية والقومية والصهيونية، والصراع (الحضاري والسياسي والتاريخي)، والثقافة والمجتمع والطبقات، تُجسِّد في مجملها عملا روائيا ثقافيا وأيديولوجيا يمثل رؤيةاستعمارية مضمرة وغامضة وضبابية، تحتل مكانة في الثقافة الإسرائيلية في الممارسة العملية في البحث عن الجذور، والممارسة القومية والبرجوازية والبحث عن السلسلة العائلية؛ سلالة مجيدة تعتد باللغة وبثقافة الكتابة العبرية،وعلى حسب اعتقاد أريك جلاسنر(2015) وهو باحث وناقد إسرائيلي، تحمل الرواية *" قصة عن الحب والظلام"* قصة حيرة ظاهرة وخفية؛ الحيرة الظاهرة الأيديولوجية: الشكّ في عدالة الصهيونية من خلال تجربته وتجربة العائلة، أما الحيرة الخفية: فتتأمل مستقبل الأدب العبري كمسألة منفصلة عن التأمل في استمرارية المشروع الصهيوني، بدرجة لا تقلّ عن كونها كتابة عن الصهيونية والقومية اليهودية ومستقبلهما(جلاسنر، 2015، ص. 11)، فهي تعيش أزمة أيدلوجية بين استبداد الصهيونية ولكنها في الوقت نفسه تؤسس لمشروعه وبقائه وتفوقه على الآخر.

2. كما تهدف أيضا إلى قراءة الدلالات النصية والبحث عن العلاقة المشتركة بين النص الأدبي والمجتمع، وكيف يتم تشكيل الشخصيات والتاريخ وإدارة الصراع في هذا السياق.

موضوع الدراسة ومشكلاتها وفرضياتها

1. تعد الدراسة هذه السردية السيرية الروائية *(قصة عن الحبّ والظّلام)* نصا أدبيا خصبا لقراءة الخطاب الصهيوني اليساري؛ بوصفه كتابة أدبية إبداعيةاستعمارية وما بعدها ، وتذهب الدراسة بالمصطلح الاستعمارية وما بعدها في ظل النظرية " إلى تحليل كل ما أنتجته الثقافة الغربية باعتبارها خطابا مقصديا، يحمل في طياته توجهات استعمارية إزاء الشعوب التي خارج المنظومة" (حمداوي،2018ص. 59).

في هذه الدراسة يذهب الباحث بالنظرية إلى ما هو أوسع من الإطار الزمني والتاريخي والجغرافي بانتهاء الاستعمار؛ ليشمل مساحة أوسع تتصل بالثقافي والاجتماعي والسياسي.

2. تعيد هذه السردية السيرية الروائية كتابة الأنا (الفردية والجماعية) في ظل حمولات الثقافة والتاريخ والحضارة ورؤية الصراع العربي الإسرائيلي، بحيث تشكّل جدلية معقدة ومتشابكة في الخطاب الروائي بين: النص والأيديولوجيا؛ بمعنى أنها جدلية تتصل بالأيدلوجيات بكل أبعادها المتصلة: بالمعتقدات الدينية اليهودية، والفكر الصهيوني، ورؤيتها للطبقية (العبودية والحرية..)، والإثنية والعرق(الغربي والشرقي..) والهوية (القومية والتهجين..)، والصراع (الحضاري واللغوي والثقافي..) وتوجس الاغتراب (المكان والمهجر اليهودي الغربي والشرقي..)، الذي يتمثله النص الروائي الذي لم يعد خطابالغويا فحسب، بل نصامتعلقا بالخطابات الأخرى الثقافية والتاريخية. والذي بدوره يحمل خطابا استعماريا جديدا "يحتاج إلى تحليل في جميع مكوناته الذهنية والمنهجية والمقصدية، بالتفكيك والتركيب والتقويض أحيانا بغية استكشاف الأنساق الثقافية المؤسساتية المضمرة، التي تتحكم بهذا الخطاب"(حمداوي، 2018،ص.60).

المشكلة البحثية

تكمن الإشكالية البحثية التي تتصل بموضوع الدراسةفي:

1. فهم هذا الخطاب الأدبي الصهيوني في أعمال عوز الروائية، فيما يتصل بالحالة الإسرائيلية والفلسطينيةفي ظل الصراع القائم حول الهوية والمكان والتاريخ والتراث، من خلال دراسة نصوص تحمل أنظمة ثقافية تتشكل داخل منظومة مؤسساتية، لا للكشف عن بنية النصوص اللغوية والأسلوبية والجمالية فحسب، بل لاستكشاف أنماط الأنظمة والتمثيل والتصوير، والعلاقة المشتركة بين النصوصيةوالمجتمعوالتاريخوالهيمنة الحضارية في ظل مرحلة ما بعد الكولونيالية (عمّاري، 2016).

2. من إشكالية البحث قراءة المعاني الظاهرة التي تختبئ وراءها المعاني المضمرة لهذا الخطاب النصيّ، وتزداد الإشكالية عمقا عندما يقول النصّ الأدبي الروائي شيئا ويعني ضمن منهج انفتاح النصوص شيئا آخر، حين تتعدد الخلفيات النصية بتعدد الخلفيات القرائية قياسا بمدى انفتاحها وانغلاقها، وهكذا، نجد أنفسنا أمام تجاذب تاريخي وثقافي، وتصارع فكري، لاسيما في القراءات التي تتعدد فيها الخلفيات النصية القرائية سواء على صعيد الكتابة أو على صعيد القراءة (يقطين،2011).

فرضيات الدراسة

تفترض الدراسة أن:

1. نص (عاموس عوز) الروائي في "قصة عن الحب والظلام" يعدّ حقلا من حقول الكتابات الأدبية التي ترتبطبسياقات استعماروما بعده وفي مساع جديدة لمضامين استعمارية معلنة ومضمرة أحيانا أخرى؛ إذ يحمل النص في شخوصه وأحداثه وإدارة الصراعخطاباتاريخيا وثقافيا واجتماعيا وسياسيا متصلا بأيديولوجيات الفكر الصهيوني.
2. تسعى الدراسة ضمن هذه الفرضية قياس مدى ثبات هذه المقولات السردية الصهيونية في صياغتها للهوية والتاريخ والوجود الاستعماري وخاصة أن نقف أم رواية تبحث عن الجذور. فالرواية في مضمونها تجسد جدلية كبرى، وأزمات متتالية في ظل الخطاب الصهيوني الجديد، تتمثل في اتجاهات عدة وهي:

- أزمة اغتراب المثقف الصهيوني والإسرائيلي المتحضر والمتمدن، والمتخلف العربي.
- أزمة الوعي واللاوعي بالتاريخ والهوية وهواجس الاغتراب.
- أزمة الذات الصهيونية والآخر العربي، ضمن علاقات متضادة ومتشابكة تتصل بالإثنية والقومية، والعرقية، والحضارية، والثقافية.

إذ ترتكز نظرية الاستعماروما بعد الاستعمار على مناقشةتلك العلاقات والجدليات " في ضوء مقاربات ما بعد الحداثة، كالمقاربة الثقافية، والمقاربة التاريخية، والسياسية، وذلك كله من أجل فهم العلاقة التفاعلية بين الأنا والآخر وهي قد تكون علاقة جدلية سلبية قائمة على العدوان والإقصاء والصراع الحضاري". (حمداوي، 2008، ص. 62). لذلك، فإنّ التحليل النقدي للخطاب يأخذ في اعتباره إنتاج الخطابات الاجتماعية والسياسية والأدبية المختلفة وتوزيعها واستهلاكها. يوضح النموذجالتالي استخدام تحليل الخطاب النقدي في الجوانب الثلاثة للخطاب الأدبي: إنتاج النصوص وممارسة الخطاب والممارسة الاجتماعية والثقافية.

شكل (1): نموذج تحليل الخطاب الأدبي

الدراسات السابقة والجدل النقدي حول السردية وتساؤلاتها:

وفي الآونة الأخيرة شاع جدلٌ حول الخطاب الصهيوني ورؤيته للصرع العربي والإسرائيلي، وقد أثار موت الأديب الإسرائيلي عاموس عوز اليساري عام 2018م جدلا أوسع حول خطابه الأدبي ومفارقة تمثلات الإيديولوجيا في أدبه، كونه أحد الأدباء اليساريين الإسرائيليين، ومن بعض هذه الجدليات التي عصفت حول الرواية ما كتبه الكاتب الأمريكي لورنس ديفسون(2019) في مقالته الصحفية باللغة الإنجليزية بعنوان "عاموس عوز وحقيقة إسرائيل". يتحدث هذا المقال الصحفي عن إعادة تعريف الشخصية الإسرائيلية، معتبرا الروائي (عاموس عوز) أديبا يمتلك وضوحا أخلاقيا أفسده بلد لا يمكنه الإدلاء بقراراته الصعبة فيه، وفي رؤيته لحل الدولتين يقول عوز: (أنا أحب إسرائيل حتى عندما لا أطيقها)، جعله معتدلا بين الصهاينة وأرسله إلى الهوامش السياسية. وأشار الكاتب " لورنس ديفسون" إلى أعماله الأدبية الأخيرة التي تمثل صراعا في الوعي القوميّ (ديفسون، 2019).

وختم الكاتب ديفسون مقالته بمقولة عدّتها الدراسة إشارات بحثية لاستكمال الدراسات والأدبيات السابقة "سيبقى عاموس عوز في الذاكرة ككاتب محترف في اللغة العبرية ومؤلف لقراءات جيدة جدا"، كما يرى إدوارد سعيد(الأنسنية،2015) أن دور المثقف هو أن يقدم سرديات بديلة، ومنظورات للتاريخ مغايرة لتلك التي يقدمها مقاتلون نيابة عن الذاكرة الرسمية، وعن الهوية والرسالة القوميتين.

استفادت الدراسة من مرجعيات مهمة لمنطلقاتها وفصولها، وتعد دراسة الباحثة نهلة أحمد(2010) الموسومةب" السيرة الذاتية عند عاموس عوز دراسة في رواية " قصة عن الحب والظلام" من الدراسات التحليلية التي بحثت فيبنيةالمكان والزمان في السيرة، وقدمت دراسة لأحداثها وشخصياتها وزمانها..، وانطلقت دراستنا من بعض نتائج الدراسةالتي بينت تطرق عوز في سيرته إلى عدد من القضايا التي شغلت الأدباء والدارسين منها: الصهيونية، معاداة السامية، وإحياء العبرية، والاستعلاء الثقافي والعرقي، أعدتها دراستنا منطلقا مهما لتحليلهذا الخطاب الاستعماري الذي يعتد بالثقافة والعرق واللغة والتاريخ ويطمس الآخر ويقزمه، وفق نظريات الاستعمار وما بعده والنقد الثقافي.

تعد دراسة عبد الرحمن وغليسي(2018) الموسومة ب " اللغة الكولونيالية وأزمة الوعي الشقي عند عاموس عوز" المنشورة في مجلة اللغة العربية العدد الواحد والأربعون، رافدا لهذه الدراسة من عنوانها، وحاولت الورقة التعرف على الذات في منظور الآخر، من خلال النصوص الأدبية والأنماط السردية التي تعكس حيثيات الصراع. تمثلت في عدة محاور بحثية منها: صورة الآخر في الأدب العبري، وعنوان آخر: مواطن الحداثة وإعادة إنتاج الاستشراق، وفي المحور الثالث تناولت اللغة الكولونيالية وأزمة الوعي الشقي.وفي مطلبها الأخير تحدثت عن: شرك اللغة الكولونيالية وأزمة الوعي الشقي.

وتنفرد دراستنا البحثية عن الورقة السابقة، أن دراستنا ستقوم بقراءة النص بكليته، وربط البنية الداخلية مع البنى الخارجة ضمن تشكلاته ومحمولاته الثقافية والتاريخية المشكلة للبني الجمالية واللغوية له.

ومن الجدل الأدبي والنقدي الذي دار حول النص الروائي، واستفادت منه هذه الدراسة في بناء فرضيتها ومشكلتها البحثية، ما كتبه الباحث والناقد الإسرائيلي أريك جلانسر (2015) في مقالته : (سبع ملاحظات حول الأدب الإسرائيلي

في سنوات الألفين)،تتحدث هذه المقالة عن موضوعات حول الأدب الإسرائيلي بعامة ومنها كتابات عاموس عوز، وقد أثارت هذه المقالة تساؤلات للباحثين في هذه الدارسةحول خطاب عوز اليساري الصهيوني، وتحدثت المقالة البحثية عنثلاث ميزات مركزية للأدب العبري في سنوات الألفين وحول عاموس عوز وكتابه " قصة عن الحبّ والظلام"ومن هذه الميزات كتابة السيرة الذاتية هي كتابة من نوع الرواية التاريخية الصهيونية واليهودية أو ما بعد الصهيونية، مبينا تحوّل إنتاجات أدبية نثرية إسرائيلية في العقد الأخير إلى صنف أدبي يعبر عن سيرة ذاتية تبحث عن الجذور. وهي في الوقت ذاته قصة تدريب وإرشاد للأدب الإسرائيلي، بوصفها رواية تاريخية تشكل لائحة دفاع حكيمة ومقنعة لصالح الصهيونية، لهذه الأسباب عدّها الناقد الإسرائيلي "جلانسر" القصة المركزية الأكثر أهمية في العقد ونصف العقد الأخيرين.

تساؤلات الدراسة

ومن هنا نطرح السؤال الرئيس: ما التصورات الأيديولوجيّة المُقنّعة والظاهرة التي يقدّمها خطاب عوز الروائي الصهيوني اليساري ما بعد الاستعماري تجاه جدليات (الأنا والآخر)، (المركز والهامش)، (المستعمِر والمستعمَر) في ظلّ الصراع الفلسطيني والإسرائيلي؟

وتتفرع من السؤال الرئيس أسئلة فرعية، منها:

1. ما التصورات التي يقدمها الخطاب الصهيوني اليساري تجاه مرتكزات الصراع: الشخصيات، الهوية، المكان، الإنسان، والمجتمع في ظل نظريات ما بعد الكولونيالية؟
2. كيف تمظهرت الإيديولوجيا في سردية عاموس عوز الروائية "في مستويين: المستوى الموضوعيّ والشكليّ المتصل بالثقافيّ والاجتماعيّ والتاريخيّ والسياسيّ، والمستوى الشكليّ اللغويّ والجماليّ.
3. ما مدى تحقق التصادم أو التباعد في خطاب "عوز" ونصه الروائي ضمن هيمنة الإيديولوجيا وعلاقاتها المتشابكة: الثقافية والسياسية والتاريخية الصهيونية؟
4. كيف يقدم الخطاب الأدبي الصهيوني اليساري الاستعماري خطابا حضاريا وثقافيا مقنعا للعالم في ظل تأثير السرديات الروائية الصغرى والكبرى، والأحداث والشخصيات التاريخية والمكان في بناء أيديولوجية الدولة الإسرائيلية وتسويقها.

المنهجية والنظريات البحثية

وفي الوقت الذي تسعى فيه هذه الدراسة إلى الإجابة عن أسئلة البحث ومعرفة مدى صمود المقولات الأدبية السردية الصهيونيةاليسارية في نص عوز الروائية، في تقديمها لخطابها، ولتصورات الهوية والتاريخ والقومية، المتصلة بأبعادها: الثقافية والاجتماعية والسياسية، وربط الخطاب الاستعماري بالمناظرات الرئيسية حول الأيديولوجيا والذاتية واللغة، تطلبت كل هذه التساؤلات والمقاربات الاستعانة بأدوات نظريات الاستعمار في مرحلة كتابة أدبية تمثل مرحلة الأدب الحديث وما بعد الحداثة، التي مثلتها مرجعيات معرفية وعلمية أسست للنظرية النقدية الاستعمارية وما بعد الاستعمار، ومن أشهرها كتاب " في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية" آنيا لومبا"،و" الثقافة والإمبريالية"، و"الاستشراق"، و"العالم والنص والناقد " لإدوارد سعيد. وكتاب " الإمبراطورية ترد بالكتابة" أشكروفت وآخرون. " وغيرها من المرجعات التي أسست للنظرية الاستعمارية وما بعدها.

تعددت تعريفات النظرية الاستعمارية وما بعد الاستعمار المتجاورة والقريبة التي تدور حول الخطاب الاستعماري وبناء الفارق العرقي والثقافي والاستعمار والأدب والمجتمع والثقافة،"ويمكن تعريفها "هي أهم النظريات الأدبية والنقدية الحداثيةوما بعد الحداثة، تقوم على تحليل الخطاب الاستعماري وقراءة الآثار السياسية والتاريخية والاجتماعية التي خلفها الاستعمار، وتنظر للنص على أنه حادثة ثقافية، ترتبط بالوقائع السياسية والاجتماعية والتاريخية،وتحليل العلاقات المتشابكة بين المستعمر والمستعمر والأناوالآخر والمركز والمهمش، وهدفها بعد عملية التحليل والتفكيك للخطاب الوصول للتنوير والتثوير بأهمية الهوية، ورفض الخضوع، والعنصرية ولغة الاستعلاء الحضاري والتاريخي والثقافي، ورد الاعتبار إلى الحوافّ والهوامش التي سعت في نضالها إلى خلق مكانة ودور جديدين بزحزحة المركز وإعادة تشكيله أو إلغائه" ينظر(إبراهيم، 2014، ص. 20) .

في ظل التعريف العريض للنظرية الاستعمارية وما بعدها تصبح سردية عاموس عوز "قصة عن الحب والظلام" خطابا أدبيا اشتمل على كثير من الأزمات والإشكاليات التي تعج في الرواية: من أزمة اغتراب المثقف الصهيوني، والمتخلف العربي. وأزمة الفرد والجماعة وعلاقتها بالهوية. وأزمة الذات الصهيونية والآخر العربي، ضمن علاقات متضادة ومتشابكة تتصل بالإثنية والقومية، والعرقية، والحضارية، والطبقية، واللونية في إدارتها للأحداث والشخوص والمكان.

ويعدّ النص الروائي " قصة عن الحبّ والظلام" سردية سيرية ثقافية بامتياز لها الفضاء الثقافي الكبير، تبحث عن الذاكرة الذاتية والجمعية لإثبات تاريخيتها ووجودها الإنساني والحضاري والثقافي في ظلّ مخاوف الصهيونية الاغترابية للمهاجرين اليهود وهواجسها، وسعيها للبحث عن وطن قوميّ أمام صيحات الطرد والإجلاء من أوروبا والعالم، وويلات المعاناة والاضطهاد والمجازر – كما تمثلها سرديات الرواية– تجلت في السرديةالروائية خلفية ثقافية وحضارية واسعة الامتداد للعرق اليهودي بلغة الاستعلاء، وإثبات هذا التفوقفي كل ما استطاعت إليه سبيلا: في اللغة والمكان وإدارة الأحداث والصراع ورسم الشخصيات والحضارة والبيئة، كما تكشفه نظريات النقد الثقافي، فالدراسات الثقافية توسّع النقاشات والحوارات" وتفتح المجال ليشمل العرق والجنوسية، والدلالة والإمتاع، وهذا التداخل في الفعل الثقافي من حيث كون الثقافة تعبيرا عن الذات والآخر، وفي الوقت ذاته أداة للهيمنة" (بعلي، 2017،ص. 15).

ونعد رواية عوز " قصة عن الحبّ والظلام" نصا مفتوحاضمن نظريات التلقي والتأويل، يلاحق الزوايا المنيرة الساطعةعنده حديثه عن الحب ، الأم ، الكيبوتس، فتية الجبال، المثقفين.. ، ويصور في المقابلالزوايا المنسية المظلمة والأطياف الغامضة والهواجس المخيفة في الطرف الثاني عند حديثه عن(الظلام انتحار أمه في طفولته، المتدينين اليهود، المتطرفين، الوحشية العربية..)، وتتبني أحداث هذا النص وشخصياته من البعد التخييلي وبجمالية التصوير الفني والبلاغي، وبلغة أدبية جمالية " تستمد مادتها من زحزحة عناصر الواقع،وتخلق مادتها من نسيج الحياة اليومية لعائلة عاموس عوز وسائر العائلات اليهودية في المهجر في أوروبا والعالم والقدس المضيئة بالأنوار والمعتمة في أحياء أخرى"(زين الدين،2010، ص7). وفي الرواية كثيرا ما يسخر من أقوال المتطرفين كونها استعمارا مكشوفا مبتذلا في رأي الأديب اليساري المعتدل،وبين المساحتين علاقات ودلالات متشابكة حذرة غامضة تحتاج إلى عمليات القراءة ، يدخل

القارئ إلى فضائه النصيّ، ودلالته الغامضة، يهندس التراكيب ويتلاعب بالألفاظ أحيانا أخرى، ويدير الأحداث، وينطق شخصيات حوارا ومونولوجا وتوسعا في الوصف، ويُسكت الشخصيات الأخرى في السردية كما فعل مع الآخر العربي يصفه من بعيد وصفا مهمشا اغترابيا وقامعا أحيانا، واستعانة بنظريات التلقي والتأويل يحملنص عاموس عوز الروائي " قصة عن الحب والظلام" في سردياته دوالّ ظاهرة وغامضة.

ولأن الأديب عاموس عوز في روايته يبحث دائما عن فهم قرائي منتج لأيديولوجياته وتصوراته، ويبحث عن مساحة أخرى يدغدغ فيها عاطفة المتلقين للتعاطف مع الذات المقهورة تحت هيمنة اللغة الجمالية، ودلالات التأويل للتراكيب والمعاني، في مطلب جماليّ ومعبّر عن هموم اليهود المقموعين النازحين وصراعهم مع الطبيعة والبيئة والإنسان، وعند الحديث عن فعل القراءة وآليات التلقي والتأويل للنص، يدعو عوز بكل صراحة في نصه الروائي القارئ " أن لا يتعامل مع المساحة التي بين المكتوب والمؤلف، بل المساحة بين المكتوب والقارئ (عوز، 2010، ص.4)، وكأن فعل القراءة هنا لا يكشف عن خبايا الكاتب الصهيوني وخفاياه وإنما يفضح أسرار القارئ المخزية التي يخاف أن يفشيها بعد أن دخل زوايا التأويل المعتمة والتصقت به وعبرت عنه.

الفصل الثاني: الخطاب وجدليّة النص والأيديولوجيا.

ملخص الرواية:

سردية روائية وسمت ب "قصة الحب والظلام" صدرت باللغة العبرية سنة 2002م، فيما يزيد على سبعمائة وستين صفحة، وترجمها إلى العربية جميل غنايم الطبعة الأولى عن دار الجمل 2010م. سيرة ذاتية أكثر تعقيدا لتتعدى الرصد والمتابعة للأحداث السياسية والتاريخية للمهجرين اليهود وويلات الحرب المسمومة واسترجاع ذكريات الأم والأب والعائلة إلى التخيل والتصوير يعيد في مجملها بعثرة الماضي والتدقيق في التفاصيل الدقيقة.

تحمل السردية من عنوانها الأضداد المتناغمة النوروالظلام:النورالذي تجسدفي الحبوالإزدهاء بالتاريخ والثقافة، والظلام متمثلا بانتحار أم الطفل عوز " فانيا" والأفكار الضبابية التي تتجسد بالموت والخوف والرعب في محيط ممتلىء بالهروب من المذابح في موطنهم الأول أوروبا وعالم جديد مليء بالشرور والمصاعب برائحة سوداء كريهة يرسمخيالا يستمد من الواقع المبعثر جغرافية جديدة أداته الاستعمار الثقافي، وحدوده مجتمعا يحمل الثقافة والحضارة والعمل والإصرار، طلائع الجبال والعمل تحملذكريات الحرب والويلات الممزقة والألم ولكنها الآن متسلحة بنور الثقافة والأمل تبحث فيها عنموطىء قدم للحب والحياة.

تتناول هذه السردية طفولة عوز وعائلته المهجرة، ويتجسد فيها المكان(المهجر: أوديسا، ليتوانيا، ألمانيا، وبولندا وروسيا إلى وطن الخلود القدس وتل أبيب، عربية، ويافا..) والهوية والقومية والصهيونية، والصراع (الحضاري والسياسي والتاريخي)، والثقافة والمجتمع والطبقات، تُجسِّد في مجملها عملا روائيا ثقافيا وأيديولوجيا يمثل رؤيةاستعمارية تحتل مكانة في الثقافة الإسرائيلية في الممارسة العملية في البحث عن الجذور، والممارسة القومية والبرجوازية والبحث

عن السلسلة العائلية؛ سلالة مجيدة تعتد باللغة وبثقافة الكتابة العبرية، تفيض بالرموز الأدبية والفكرية والشعرية أوروبية أو عبيرية يهودية يلقون قصائدهم عن الوطن المزعوم فلسطين .

سردية تتناول أحداثها الملحمية والتاريخيةبطلها الطفل عوز الذي يستعطف ويتأمل ويدغدغ العاطفة ولكنهيصوغ الحلم الصهيوني من يوميات العائلات اليهوديةكحكاية عائلية، يتحولفيها الطفل إلى الكاتب العليم الذي يروج ويوطن خطابا جديدا في نص روائي ملون بمحمولات التاريخ والثقافة والمجتمع والسياسة منذ بدايات هجرة أجداده من بولندا وروسيا إلى القدس، تدفع الرواية زمنيانفسها إلىالأمام، فهي رواية مفتوحة ومتوالية روائية تعتمد على آليات الاسترجاع والقفز والحذف، فكاتب السيرة الروائية هو الكهل عاموس عوز، أما الذي يعيش تلك الأحداث على امتداد الرواية الطفولة بكل تفاصيل حياته وعلاقاته بالأشخاص والأمكنة والأحداث. وتنبي من خلال هذه العلاقات الرواية نفسها كاشفة عن طبيعة الخطاب وأيديولوجية الكاتب ودور الشخصيات في بناء الحدث وتطوره.

لقد كان للشخصيات العائلية الدور الأهم في بناء السيرة الروائية، حيث سلط الضوء على أمه، ثم أبيه واهتماماته الثقافية والأدبية والسياسية، وكذلك اهتمامه بالأرض والزراعة والكيبوتس، ونجد جانبا وافرا يذكر فيه جدته التي كانت تعاني من وسواس النظافة، وحمولاتها السلبية تجاه الشرق الكريه العفن، كما يشير في كثير من صفحاتها إلى العم وعلاقاته مع العائلة ونقاشاته وآرائه.

وتبرز السردية الروائيةجانبا كبيرا من الحوارات والنقاشات بين الأدباء والسياسيين التي كان يشهدها الطفل عوز ويرصد تفاصيلها ومضامينها، يجسد أبعادها الأيديولوجية السياسية والاجتماعية والدينية بفن النص الروائي الذي يحمله أبعاد ذلك الخطاب.

كما تجسد هذه السيرة الروائية الأحداث المتشابكة والصراعات الاجتماعية ،والعادات في حياة الطفل عوز وعلى رأسها انتحار أمه (فانيا)، حيث شكل هذا الحدث مفصلا هاما في حياته وحياة والده، وظل ذكر هذا الحدث مرافقا للكاتب في سرد سيرته، يتطرق إليه كل حين ليكشف معاناته وبؤسه. فالحب الكبير الذي منحته إياه أمه في بدايات حياته، ذاق مقابله مر الحرمان بعد انتحارها.

ويسلط النص بحرفية ونباهة الضوء على أحداث تاريخية هامة وعلى رأسها إقامة الدولة اليهودية في فلسطين في أربعينيات القرن الماضي، والانتداب البرطاني ومخاوف المهجر الماضي والحاضر "**تحن هنا في بلادنا، شرفنا لن يدوسه أحد بعد**"وهواجس انسحاب الانتداب من فلسطين والخوف من عرب يريدون قتلهم وإبادتهم يفيضون تطرفا دينيا وفكريا متشددا ضد اليهودية والصهيونية فلا فرق بين النازيين في ألمانيا والعرب في فلسطينويتساءل دوما "هل ستحدثمذبحة، مجزرة، يقوم العرب ويذبحوننا جميعا". حيث تظهر في الرواية شخصيات يهودية تظهر ذلك التوجس من المحيط الجديد مثل أفرايم أفنيزي" قتلة وما الذي تتوقعه منهم، من وجهة نظرهم نحن أغراب هبطنا من الفضاء الخارجي وغزونا أرضهم، ورويداً رويدا سيطرنا على أجزاء منها، وفي الوقت الذي كنا نعدهم بأننا جئنا فعلاً لنغمرهم بالخيرات، كنا نضم إلينا بمكر واحتيال المزيد من أراضيهم... ماذا نظن بأنهم سيقدمون إلينا الشكر على أحساننا ومعروفنا، ما العجب في انهم حملوا ضدنا السلاح"، ولكن تطرد هذه الشخصيات مخاوفها كونها كفاءات ثقافية شخصيات ذات أوزان

أدبية وفنية وسياسية ساهمت في تشكيل الهوية الجمعية، وإبراز الثقافة اليهودية، وبناء الدولة، ومحاولة الترويج والتوطين للتاريخ والثقافة الصهيونية في فلسطين، وتبقى الرواية في حمولاتها وأبعادها الثقافية مفتوحة غير منتهية تؤسس للخطاب الصهيوني الاستعماري وما بعده الجديد.

المبحث الأول- في مفهوم جدلية الخطاب[1] والنص[2] والأيديولوجي[3].

انطلاقا من أن الأيديولوجيا تعدّ منأخطر المفاهيم التي توظفها النصوص الأدبية، وتتصف بالانفتاح والتوسّع الكبير في مفهومها، ووصفها " بأنها ليست ذات نظرة ضيقة بل على العكس من ذلك، تتسم بالشمولية التي تجعل من وظيفتها تلتقي مع مفهوم العالم، من خلال كونها نظاما شاملا لا ينفصل عن الفضاء الاجتماعي والسياسي، أين يستطيع الأفراد فيها تشكيل تصور شامل لتفسير وجودهم وتنظيم علاقاتهم، فهي نظام شامل لتغيير العالم"(السعيد، 2019،ص.11)، انطلاقا مما سبق، كان خطاب نص عوز في السيرة الروائية محملا بأبعاد أيديولوجية تظهر عبر مستويات سطحية وعميقة، ترجمت هذه الأيديولوجيا في فضاء الرواية في زوايا مختلفة تمثلت في: الأحداث والصراع والمكان والتاريخ، كلّها تحمل أنساقا أيديولوجية تاريخية ثقافية دينية اجتماعية، كما أن الشخيصات المرتبطة بالمكان تحمل تلك الأنساق " فمكتبة العم يوسف بدت لي ممرًا إلى هياكل الحكمة: أكثر من خمسة وعشرين ألف مجلد، همس لي أبي ذات مرة، هنا في مكتبة العم الخاصة، كتب قديمة وثمينة، مجلدات هربت بالخديعة، كتب علمانية ودينية، كنوز التراث اليهودي وتراث الشعوب، كتب لا مثيل لها إلا في مكتبة الفاتيكان، عبرية وآرامية وسريانية ويونانية قديمة وحديثة وعربية وإسبانية وبولندية وروسية وإنجليزية وألمانية وفرنسية وإيطالية.. ولغات ولهجات أخرى لم أسمع بها مثل الأوغريتية والسلوقية والكنعانية والمالطية .."(عوز،ص 540)

" كما أن اللغة والأدب متورطان معا في بناء في بناء الذات والآخر" (لومبيا،2007، ص 81)، ورواية عوز من الأدب الذي يحمل صفة استعمارية كولونياليةتعيد كتابة التاريخ وترسيخ ثقافة الآخر الصهيوني، وهذا ما يجعل خطاب عوز خطابا يقيم جدلا بين النص والأيديولوجيات المبطنة والظاهرة التي تتعمق في إدارة الصراع، وتعظيم الشخصيات وصنع الأحداث، فالحدث في الرواية يد خل القارئ إلى عالمه ، إلى ورشته الروائية، يعرّفه على أدواتها وطرائق تركيبها، وكيفية عقد عُرى أحداثها، وكيفية تجميعها وتوزيعها وتركيبها والتلاعب بألفاظها. مادته الأوّلية ألبومات قديمة لصور العائلة، ومقاطع من حوار مع عمته سونيا، ومقاطع من كتب، وروايات، وأبيات من الشعر، وحكايات أسطورية، وقصص أطفال، وأحاديث متفرقة ما زالت عالقة في الذاكرة .وهو إذ يعيد هندسة روايته، فإنما يستعيد مقاطع وأزمنة على شكل لازمة موسيقية. في كل مرة يستعيدها بطريقة جديدة وفي ضوء جديد" (زين، 2010).

والاشتغال بالأيديولوجيا فضاء مهمّ وهامّ في الوقت نفسه في النصوص الاستعمارية" لا بدّ من تحديد آثار الأيديولوجيا وطرائق اشتغالها ومحاولة تفكيك برامجها تمهيدا لكشف حقيقتها عبر القيم والأفكار الموجودة ضمن فضاءات النصوص الأدبية بخاصة، والتي تضفي على الأيديولوجيا من ذاتها وتصبغها بصبغتها في علاقة تأثير وتأثّر، تجعل النص الأدبي وسيطا أيديولوجيا من خلال الكتابة والتشكيل الدلاليّ بما يحمله من عناصر لغوية وغير لغوية، على اعتبار أن لغة النصوص الأدبية ليست المستويات اللغوية فقط ولكنها كل العناصر الفاعلة في السرد، ومن ذلك تنطلق جدلية الأيديولوجيا

والخطاب والنص" (السعيد،2013،ص 11). فالأدباء ونصوصهم الروائية تحتل مكانة كبيرة بين الأجناس الأدبية الحديثة التي تلعب دورا كبيرا في تشكيل الوعي والوعي المضاد، قادرة على تثبيت الرواية التاريخية (للمستعمِر والمستعمَر) وصمودها وتعزيزها بتشكيل خطاب مُقنِع ومنتصر للأيديولوجيا خاصة في مرحلة توجهت فيها العالمية إلى خطابات جديدة في سياقات استعمارية؛ فالرواية تعود قدرتها الفائقة في تطوير وسائل السرد، إضافة إلى قدرتها في تمثيل المرجعات الثقافية والاجتماعية والنفسية المؤثرة (إبراهيم،2003).

فالكتابة في مرحلة الاستعمار وما بعده تدفع الأدباء إلى بناء سرديات بديلة للسياق الجديد، تثير مجموعة من الإشكاليات الأساسية والأزمات المعقدةتتعلق بعلاقة (الأنا بالآخر) وعلاقة (الشرق بالغرب) وعلاقة (الهامش بالمركز)، تدعو في ظاهرها إلى المساواة والعدل والروح الاجتماعية مع الحفاظ على التاريخ والهوية، والتلاعب به أحيانا أخرى، وتبطن في داخلها ظلال الهيمنة والاستعلاء لتلك الشعوب المضمرة في السردية " فالنص والتاريخ منسجمانومدمجان معا كجزء من عملية واحدة، وتأتي الثقافة من حقيقة أنها تعين على تشكيل التاريخ وتنميطه، لذا يمكن اعتبار أن كتّاب ما بعد الحداثة يشكلون منظومة فكرية مؤثرة وفاعلة، وقد تلجأ بعض النصوص إلى إعادة سرد روايات القوى المختلفة لتشكيل حوارات ثقافية (الغذامي، 2000ص.66).

ومن الأهمية بمكان دراسة العلاقات النصية المرتبطة بالأيديولوجي الفكري الثقافي المنتج لخطاب عاموس عوز الأدبي الصهيوني اليساري، للكشف عن الأقنعة التي تتحكم في النصوص الإبداعية وتمسّ جوهرها، لنقد الخطابات في إطارها وتكونها وآثارها السياسية والاجتماعية والجمالية، بغية رسم صورة تقف بموضوعية على أشكال السلطة والهيمنة الثقافية الطامحة على التمركز والبحث عن المضمرات النسقية (**أوراد،الانسنية2017**). وقراءة تلك السرديات يتطلب منا الوقوف على الأمكنة والشخصيات والأحداث التاريخية والصراعات التي شكلت هذه الرواية، مع إيماننا العميق بوجود وعي تاريخي وثقافي واجتماعي يشكل مرتكزا كبيرا للسردية، وإن بنائية الأدب والنصوص هي إعادة جديدة للوعي يتصل بالسياسي والاجتماعي والثقافي.

المبحث الثاني–المكان وجدلية النص والأيديولوجيا.

يحتل الحيّز المكاني في الخطابا لاستعماري فضاء جغرافيا متسعا يتصل بالإنسان المتفاعل معه، والبيئة الاجتماعية المرتبطة بالثقافة والموروث والعادات والتقاليد، ويرفد المكان في هذا الخطاب بمدلولات عميقة تعزز الهوية التاريخية والوجودية (للأنا) الفردية والجمعية القومية والتاريخية والثقافية وتنفيها عن الآخر. فالحيز المكاني المخصص وفضاء الجغرافيا الكبرى، عاملان يرفدان نص عوز الروائي السيري بمدلولات تعزز الهوية التاريخية والقومية لليهود إلى حد كبير للالتصاق بالمكان وتوطيد العلاقة بالتاريخ المرتبط به، وتتراوح المكانية بين حيزين: حيز الحنين عند استرجاعه لأحداث الهجرة والمنفى واللجوء في الغرب ليثبت مرارة المعاناة المرتبطة بعقدة الاضطهاد اليهودي، لكسب التعاطف الإنساني للقارئ، والحيز الآخر المكان المقدس المرتبط بالقدس والوجود التاريخي لليهود.

والرواية تجوب عدة أمكنة (المهجر: أوديسا، ليتوانيا، ألمانيا.)وفلسطين (القدس شرقية وغربية، عربية ويهودية، يافا..) هذا الفضاء يعكس الوعي التاريخي للمكان، المشدود بأفعال أبطال يبحون عن الماضي والهوية، فالقدس كما يقدمها

الخطاب تعجّ بأبطال يهود عانوا من الويلات والنزوح، مثقفين، مهاجرين، جاءوا من شرق إفريقيا وشمالها تمثيلا بالجدة (شلوميت) التي جاءت مُحمَّلة بمفاهيم مسبقة عن شرق أوسط مملوء بالميكروبات.

يعقد المكان المرتبط بالشخصيات في نص عوز ما بعد الاستعماري مقاربات ثقافية تاريخية سياسية ليقيم علاقة جدلية بين (الأنا والآخر)قائم على إقصاء الآخر وتهميشه، وإدارة الصراع الذي ينتصر فيه (للأنا) اليهودية وتعظيم وجودها الثقافي والاجتماعي والحضاري والعرقي، "وسردية عوز توزعت بين المهجر وفلسطين ما يجعل حياة المهاجرين اليهود تفيض ثقافة وحضارة بما حملوه من عادات وطقوس "من خلال سيرة عائلته التي وفد جناحيها الأبوي من أوديس الروسية وجناحها الأموي من بولندا، يروي حياة طلائع المستوطنين كروافد بشرية ثقافية متنوعة ومتباينة تصب كلّها في البحر الفلسطيني، فهم يحملون عقليات وحساسيات مختلفة وذكريات مريرة وتطلعات متفائلة لبناء بلد مستقل وإذ يغلب على معظمهم التوجس والشعور بالخوف، وتطاردهم ذكرى الاضطهاد، وهذه تيمة معروفة عند المؤلفين اليهود" (زين الدين، 2010، ص. 2).

ترتبط سردية عاموس عوز بالحمولات التاريخية والثقافية في لحظة تاريخية حاسمة في فلسطين في ظل الانتداب وأطماع اليهود بإقامة دولة على أرض فلسطين التاريخية، وهنا يكمل الخطاب الأدبي دوره الاستعماري، ليسوغ ويعلل ويشرعن الوجود التاريخي والثقافي للدولة الإسرائيلية بوصفها أداة تنوير وبناء وحيوية وثقافة ورقي لشعوب يهودية مجتهدة عاملة منتجة حيوية نشطة جاءت لإنقاذ شعوب عربية غرقت في الجهل والتخلف والفقر والجوع.

المكان في السردية يحيكه من نسيج الحياة اليومية لعائلته والعائلات اليهودية في القدس منزل الجدّ ألكسندر كلاونزر، والجدة شلوميت، ومنزل ستاشك ومئلا، ومنزل العم يوسف كلاونزر، فالأمكنة"تجعل القارئ يفتتن بهذه الإرادة الفولاذية، هذه الحيوية، وهذه الهلامية من الثقافات والأذواق والآراء التي انصهرت كلها لترسي دعائم الدولة وركائزها القوية، بل هو يحاول أن يزيل الفكرة الدارجة عند الغربيين والعالم، بأن إسرائيل تقوم على القوة العسكرية، مقدما صورة أخرى عن خلية نحل لمثقفين وكتاب وشعراء يحلمون بإقامة دولة تحميهم من غائلة الاضطهاد، ومن ذكرى المجازر، هؤلاء تنوعت مشاربهم، إنما يتطلعون إلى بناء ثقافة ملائمة لحياتهم الجديدة في فلسطين، وهم يصنعون بأشعارهم وكتبهم وخيالاتهم دولة طوباوية في ظل لغة عبرية حية ومعاصرة" (زين الدين، 2010، ص.3). كما يصف الأمكنة بدقة وعمق ليرسم صورة واسعة للمكان: البيوت، والأحياء اليهودية (حي كيرأفرهام، وحي تل بيوت، وأروانا، وكيبوتس رامت راحيل ..) والشوارع، والمنازل، والأزقة، التي حرص على تهويدها ويلبسها ثقافة الأنا اليهودية، فالسردية تقيم ثنائية الحضور والغياب، حضور (للأنا) الجمعية اليهودية، والغياب (للآخر) الفلسطيني عن الأرض والمكان والتاريخ والثقافة،

إن انفتاح الأمكنة في السرد الروائي وعلاقته بالخطاب الاستعماري يقدم قراءة جديدة للإنسان والمكان والتاريخ، اعتمد فيه الخطاب على تقنية الوصف والسرد للأمكنة ليعقد ثنائية بين عرق متحضر نام وعرق متخلف، ليعطي قراءة تأويلية جديدة، لأحقية المكان؛ فالمكان لمن عمروه وزرعوه وزينوه بالثقافة والحضارة، إذ يعد "الكيبوتس" معلما حضاريا

وانفتاحا للعالم الخارجي مما ينتجه من زراعة وصناعة وعمارة والأمكنة العربية تحيط به من كل اتجاه خربة ومهجورة ومحفوفة بالجهل والمخاوف.

هكذا يجمّل الأدب المكان وفق صياغات جمالية تجعل (الكيبوتس) الذي انتقل إليه الطفل عوز ينتصر للعرق اليهودي ونقاوته "هذا الانجذاب الشديد إلى النظام الكيبوتسي إلى سلوكياته ومثله، إلى أسلوب الكلام، وإلى طريقة اللبس الخاصة به، إلى القيم، والأغاني، والألحان الجميلة، إلى الأدب الذي نشأ به، وبالقرب منه، إلى مساهمته الحاسمة في حرب 48" (عوز،2010، ص. 455).

ويعد المكان ضمن النظرية الثقافية دلالة على الهوية والعرق والتاريخ، تدير صراعا حضاريا وتاريخيا في ذلك المكان، حين نقرأ بالتأويل العميق لمدلولات المكان المتمركزة فيها الذات اليهودية والآخر العربي، تتصل بجدلية الاستعلاء العرقي والهيمنة الحضارية بين الغرب المتمدن تمثيلا باليهود المهاجرين والشرق المتخلف تمثيلا بالعرب، يكشفه الخطاب الصهيوني في سرديته بقول عوز(2010) في نصه "روائح الحياة اليومية تنبعث من بيوتها وأزقتها وواجهاتها ومحلاتها ورائحة بيوتها وطعامها، القدس الفقيرة، المهملة المكتظة، والقدس الغنية المترفة المضاءة؛ إنها تعج بأعلام الثقافة اليهود من شعراء وصحفيين وأدباء يتبادلون الاتهامات ويتنافسون ويتعاركون ويختلفون حول مآلهم ومصيرهم في هذه البلاد، وبين مؤيد لعقد صلح مع فلسطين وتقاسم الأرض، ورافض يدعو لطرد الفلسطينيين والاستيلاء على ممتلكاتهم" (عوز،ص 345).

كما يعقد النصمفارقة بين الأمكنة الضيقة والأمكنة المفتوحة ويدير صراعا بين الأيدلوجيات العرقية والحضارية بين المستعمِر والشعب المستعمَر العربي الفلسطيني، لم يعد في النص الاستعماري المكان الحيز الجغرافي الضيق المرتبط بالمنزل والفناء المحيط به الذي عاش فيه عوز في طفولته " شقة صغيرة للغاية في الطابق الأرضي، منخفضة السقف، تبلغ مساحتها ثلاثين مترا مربعا، كان والديّ ينامان على أريكة جرارة تشغل مساحة كل الحجرة تقريبا عندما تفتح مساء، وأمام الحجرة تقع حجرتي الصغيرة الضاربة إلى الخضرة التي يملأ نصف مساحتها تقريبا دولاب مكتظ بالملابس، يربط المطبخ الصغير والحمام بكلا الحجرتين الصغيرتين ممر مظلم ضيق منخفض، متعرج قليلا، يشبه نفق الهاربين من السجن" (عوز، 2010، ص.صفحة 9). هذا المكان الضيق المظلم المحاط بجبل مظلم، الذي أشبه بسجن الهاربين يربطه بمحمولات ثقافية يحوّل المكان المظلم الضيق إلى مكان مفتوح مرتبط بالعالم الخارجي فهو يزخر بالكتب والمعارف والنافذة المضيئة للتحرر والانعتاق بديلا عن المنزل الحسيّ المظلم الخرب في أحد أحياء القدس. ويوضح عوز(2010) هذا الاستعلاء الثقافي "كانت الكتب الخيط الرفيع الذي يربط غواصتنا بالعالم الخارجي، وكان يحيطنا من جميع الجهات الجبال والمغارات والصحاري، الإنجليز والعرب والحركات السرية، وطلقات المدافع الرشاشة ليلا والانفجارات، المخابئ والمعتقلات والتحريات، والمخاوف المكبوتة مما تضمره لنا الأيام القادمة" (ص،340).

كما يحمل النص محمولاته الثقافية؛ فالمكان المادي المخيف المحاط بالشرور والويلات والعرب والحركات السرية والانفجارات والمغارات والصحاري، يتحوّل إلى مكان حسّي شعوري مرتبط بالكتب الموجودة في المنزل الضيق،يشعر

به بالزهو الثقافي والانفراج من الضيق إلى الانفتاح مع العالم الخارجي، والخروجمن المخاوف المكبوتة مما تضمره الأيام القادمة إلى الاستقرار النفسي بمكان يعج به اليهود المثقفين الذين يعمرون الأرض والمكان.

سردية عوز تذهب بالأمكنة إلى عمق وبعد ثقافي يثبت التفوق العرقي لليهود الحضريين في تل أبيب التي تعج بالثقافة والموسيقا والغناء والحركة والنشاط فهي المشروع السريّ الضروري للشعب اليهودي "تل أبيب بحر، نور، سماء، رمال، سقالات، مدرسة دينية، أكشاك بالشوارع، مدينة عبرية بيضاء، ممهدة، تنمو بين البساتين والكثبان، تل أبيب مدينة عامرة بمسارحها، ومقاهيها وفنانيها وأحداثها التي تدلّ على الحياة والحرية" (عوز،2010، ص.455).

هكذا يراوح نص عوز الاستعماري بين الأمكنة، في الوقت الذي تتسع فيه رقعة المكان (للأنا) اليهودية وصفا وسردا وحضورا ثقافيا وتاريخيا وحضاريا قويا لأمكنة عمرها اليهودي متعدد الأعماق والهويات والمرجعيات والجذور الحضارية والثقافية والعرقية، تغيب الأمكنة للفلسطيني وتضيق مساحتها حتى الصفر الحضاري فليس لها وجه تاريخي ولا هوية حضارية، ولا وجود ثقافي، وهذا التغييب للمكان والإنسان هو قتل رمزي للآخر الفلسطيني المستعمَر المحتَل.

المبحث الثالث– الأحداث والشخصيات والأيديولوجيا التاريخية والثقافية.

الأحداث الصغرى والتاريخ الممتدفي نص عاموس عوز– الذي يمتلك وعيا عميقا للتاريخ باعتباره أحد الأدباء والفلاسفة والنقاد المؤسسين للأدب الإسرائيلي ما بين 48 –67 –تشابكت بين ماض وحاضر، واسترجاع واستشراف، وتوزعت بين أحداث تتعلق بالعائلة والشتات والطفل والأب والأم المنتحرة،وأحداث تتعلق بالتاريخ والهجرةوالصهيونية وأحداث الصراع بين اليهود وبريطانيا أبان الاستعمار البريطاني لفلسطين، وعلى رغم من الأحداث المتشابكة في النص، المرواغة للقارئ، يتحدث عن سيرته التيتختبئ وراءها سيرة جمعية لليهود والصهيونية، في كل ذلك ما يهمنا هناجدلية النص مع الأيديولوجي التاريخي في ظل الأحداث والتاريخ والزمان والشخصيات والصراع، فالسردية الروائية تنطلق من مفهوم التلاحم بين التاريخ والسرديات، وتشابك المخيلة بالتاريخ، والواقع بالسحر، لتصل به بوصفها حقيقة تاريخية ثابتة، وتدخل في مكونات الدين واللغة والعرق والثقافة والأساطير والسير الشعبية (سعيد، 2005).

ولعل انتحار أمه كان من أبرز تلك الأحداث التي تركت في نفسه هاجسا رافقه طيلة حياته "لو كنت هناك بجوارها في تلك الغرفة.. في تلك الساعة.. لكان من المؤكد أنني سأحاول بكل قوتي أن أشرح لها لماذا هذا ممنوع، وإذا لم أنجح في أن أشرح لها لفعلت أي شيء لكي أثير بداخلها الشفقة، لكي تشفق على ابنها الوحيد، كنت سأبكي واستعطفها.. وكنت سأعانق قدمها، وكنت سأضرب وأخربش نفسي حتى يسيل الدم كما رأيتها تفعل ذلك في لحظات اليأس" "عوز2010: ص 765"

والكاتب في ظل نظريات الاستعمار وما بعده يبحث عن أدوات إقناع وتصوير وتجميل وترقيع، ولغة مراوغة ليجعل التاريخ بحمولة الأدب مجملا بجمالياته وتحت سلطة لغته هروبا من سلطة التاريخ والسياسة، أو تغييرا وتحريفا لبوصلتها حسب معتقداته وأيديولوجيته، ويقدم سردياته البديلة للتاريخ، فإن دور المثقف أن يقدم سرديات بديلة ومنظورات للتاريخ مغايرة لتلك التي يقوم بها مقاتلون نيابة عن الذاكرة الرسمية وعن الهوية والرسالة القوميتين (سعيد، 2005).

كما أن الشخصيات تبدأبالبحث عن الذاكرة الذاتية والجمعية، فالشخصية المرجعية (الطفل) عوز تنقلب إلى الراوي العليم الذي يقدم سردياته من تلافيف الواقع والخيال والمتخيل، تتخلى الشخصية عن طفولتها، وكما تحيل السرديةشخصية (الطفل) إلى ماضيها لتثبت تاريخها الجديد، ومعاناتها الماضية: هجرة العائلة، والشتات، والبحث عن الذاكرة الفردية الذاتية والجمعية لليهود المهجرين هروبا من الملاحم والمجاز وإثباتا للهوية القومية في أرض جديدة وبديلا عن شعب عربيلم تصرح السرديةحتى بفلسطينيته وتاريخ وجوده، فالسردية تذهب إلى حدّ كبير إلى تجاهل التاريخ "للآخر" الفلسطيني لتجعل اليهود والعرب ضحايا معا، وعندما وظّف الأحداث والسرديات والتاريخراحعوز يساوي في حديثه عن المجازر التي حدثت للعرب، بأنه اضطهاد مواز لما حدث لليهود في أوروبا من مجازر، (نظرية الضحيتين) لتتساوى الحقوق، فحادثة دير ياسين التي تذكرها الرواية بالحديث عن الطفلة التي ماتت على الطريق على حاجز عسكري ومنعها من بلوغ المستشفى، بلراح يوازي بين الأحداث والمجازر على أرض الفلسطينيين في حرب 48، يوازي بين المستوطنات التي سقطت بأيدي العرب ومسحت تماما عن وجه الأرض، وبين السكان اليهود أسروا وقتلوا في مجازر أوروبا. (بيضون، 2019).

ثم ترى النص يهتم بالاستعلاء الحضاري والثقافي، في ظل جدلية (الأنا والآخر) والتجاهل التاريخي للآخر وإثبات التفوق العرقي والحضاري (للأنا) اليهودية في ظلالنظرية ما بعد الاستعمارية،ليثبت تخلف العربي الآخر وهمجيته وشراسته، وقد جاء يهود طلائعيون لينقذوا تلك الشعوب من جهلهم وفقرهم، " كل العالم كان نائيا، جذابا مدهشا، لكن أيضا كان خطرا جدا ومعاديا لنا: لا يحبون اليهود لأنهم حادّوا الذكاء ومتميزون، غير أنهم في الوقت نفسه يثيرون الضوضاء ومندفعون، لا يحبون مشروعنا هنا في أرض إسرائيل، لأن عيونهم ضاقت بنا فوق رقعة ضيقة من المستنقعات والأراضي القفراء والصحراء" (عوز، 2010، ص. 232) .

هكذا يرسم النص صورة جديدة للاستعمار تتجلى فيها صورة الحواف والهوامش والشخصيات المركزية والثانوية، والأنا والآخر في ظل ازدهاء بالتاريخ والحضارة والثقافة " لتصبح الكتابة ما بعد الاستعمارية مؤسسة فاعلة في الكتابة، ومروجة لأفكار خاصة عبر مشروع تتبنى حالات كتابية تنحو إلى تفكيك الخطاب الاستعماري التقليدي وإعادة النظر فيه، وفي تاريخ الامبراطوريات السابقة" (أشكروفت بيل وآخرون، 2005، ص.7).

وتظهر الشخصية البطلة الأسطورية اليهودية بوضوح وجلاء في السردية، ترسم لها ملامح القوة والفتوة والعمل، ثروة بشرية تعمر الأرض وتفلحها، إيمانا منها بالعمل والوجود والحضارة طلائع من المستوطنين كروافد بشرية وثقافية متنوعة تصب في البحر الفلسطيني "ما وراء الجبال أخذ ينمو جنس جديد من الأبطال اليهود، جنس مسفوع قوي، سكوتي وعملي، لا يشبه إطلاقا اليهودي المهجري، ولا يشبه إطلاقا سكان" كرم أفراهام" فتيان وفتيات طلائعيون، وقد اتحدوا في تحويل ظلمة الليل إلى صديق.....يتركون أثرهم على الأرض والتاريخ يحرثون الحقول، ويغرسون الكروم" (عوز، ص. 14).

فإننا نذهب بعيدا إلى اعتبار الرواية جنسا أدبيا فاعلا ومؤثرا في الكتابة الاستعمارية، لإنتاج خطاب يؤسس لما بعد الاستعمارية حين "تلازمت الرواية والاستعمار في تمثيل المستعمر والمستعمَر، الذي أخذ شكلين: فيما يخص الذات الذي

أنتج التمثيل السردي ذات نقية، وخيّرة، ومستقيمة، فاعلة شريفة، وفيما يخص الآخر، أنتج التمثيل السردي الآخر يشوبه الانفعال، والخمول، والتوحش، وغياب الفاعلية"(إبراهيم، 2003، ص 292).

السرديات الروائية في حمولاتها التاريخية تجاه الأيديولوجية الصهيونية في نص عوز تشكل حضورا فاعلا في تشكيل الوعي الصهيوني وروايته وتدعيم مقولاته، بل تمتد لتشكل خطابا مقنعا بأحقية (الأنا) اليهودية بالأرض والتجاهل التاريخي (للآخر)، ونراهيدير حوارات عدة على مساحة ممتدة في نص الرواية على لسان الشخصيات وصراعها مع ذواتها والآخر، التي تؤمن بهذه الأحقية ويثبت تفوقها الحضاري والثقافي على (الآخر) العربي الذي ينكر اسم فلسطينيته على امتداد الرواية، بسخرية لاذعة وتهكم صريح "إنهم يرون هؤلاء المستعمرين النشيطين سوف يبتلعون البلاد كلّها، ويزيلون عنها ما يشير إلى عروبتها، كما فعل البعض في أمريكا لسكان البلاد الأصليين" (عوز،2010، ص. 266).رغم أنه حاول إظهار رفضه للحروب والتسلط والعنف، وإظهار الفكر اليهودي فكرا إنسانيا مثل قوله: "يقولون بأن الشمس ستنطفئ ذات يوم.. إذن علام يذبح الناس بعضهم بعضا على امتداد التاريخ، ما هو الشيء المهم إلى هذا الحد أيهم يحكم كشمير، او المغارة التي تحت الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل؟ بدلا من أن نأكل تفاحة من شجرة المعرفة، يبدو أننا أخذنا من الأفعى تفاحة سامة من شجرة الشر وأكلنا بشهية، هكذا انتهت الجنة وبدأ الجحيم" "عوز 2010: ص273"

فالخطاب الأيديولوجي الذي يقوم على فكرة القومية وإحلال شعب مكان شعب إحلالا وإزاحة، غزو ثقافي وحضاري، هيمنة وإخضاعا، كلها تتحول في خطاب عوز الأدبي إلى خطاب استشراقي يتبنى الأفكار التنويرية "تسير فيها السردية الصهيونية على خطى مواضعات المركزية الغربية التي عملت على الفصل الابستمولوجي والأنطولوجي بين ما هو غربي وما هو شرقي، على أنه متطور وعقلاني وحداثي في حين صوّر الشرق على النقيض، أي أنه متخلف وعاطفي، كماتكمن المفارقة في خطاب عوز أنه عاجز عن التوفيق بين المواقف الصريحة ونقيضها، فهو من جهة يكتب وفق منظور استشراقي يقوم على اختزال الآخر وتقزيمه، وإضعاف صوته ووجوده، لتسهيل الهيمنة عليه، ومن جهة ثانية ينتقد الممارسات الصهيونية ويستنكر تعنّتها، ولا يخفي تضامنه مع الضحايا والمقهورين الفلسطينيين. " (وغليس، 2018، ص. 247).

وتذهب الرواية في سردياتها وأحداثها إلى تنمية الأبعاد القومية لليهود وتعظيمها، وتسويغ السيطرة على المهمشين، وقولبتهم في قوالب الضعف والبساطة والهامشية أمام انفتاح الحضارة والثقافة لليهود ليسهل السيطرة عليهم وقمعهم، وإزالتهم عن الوجود الحضاري.

كثيرا ما تقيم سرديات الرواية بين الشخصيات حواجز مادية ومعنوية وتعمق الفجوة بين الشخصيات اليهودية والعربية لتجعل بينها قطعية زمانية وحضارية وثقافية متمثلة بازدهاء ثقافي كبير للأنا اليهودية " أقيمت جدران طويلة عالية بامتداد الخط لإغلاق الشوارع التي يقع جزء منها بالقدس الإسرائيلية والآخر بالقدس العربية، بنيت هنا وهناك حوائط عالية من الصفيح لإخفاء المارّة بشوارع المدينة الغربية عن أعين القناصة بأسطح المدينة الشرقية، قسّم كل المدينة شريطحصين من سياج الأسلاك الشائكة وحقول الألغام ومواقع إطلاق النار ومراكز المراقبة"(عوز،ص.383).

وتقدم سردية عوز الشخصيات الفلسطينية العربية شخصيات مسطحة معبئة تطرفا وهمجية دينية وحضارية وثقافية تقتل وتذبح، يسود على لسانها حكايات ومقولات ليثبت هامشيتها وتطرفها لتصبح منبوذة عالميا أمامشخصية الآخر المتحضر الحافل بالنشاط والعمل والحيوية والاقتصاد والزراعة،يقول عوز في سرديته (2010) "ساد القدس خوف شديد حاول الجميع بكل قوتهم إخفاءه في أعماق صدورهم، من يدري ماذا سيفعل بنا البريطانيون قبل خروجهم، وبعد خروجهم ألن تنهض حشود العرب المتعطشين للدماء، وملايين المسلمين المتحمسين ويذبحوننا جميعا خلال أيام معدودة، ولن يتركوا طفلا على قيد الحياة" (عوز، ص. 378).

ومن السرديات التي تثبت تلك الوحشية للشخصية العربية عند زيارته للعائلة السلوانية، عندما شاهد والد عائشة وهو يضربها بقسوة وعنف ليس كمن يعاقبون الأطفال إنما كمن يصب جام غضبه على حصان أو على جمل جامح، وإزاء العربي الطيب الذي مثله في الرواية رجل أنقذ الطفل عاموس عوز في غرفة الملابس، فإن ثمة يهوديا من ضحايا النازية وأمام قائد إسرائيلي متعصب، يقف قائد عربي أكثر تعصبا منه، ولعل في فلسفة عوز الحيادية التي تستمع إلى ما يقوله كل طرف وتعطيه الحق فيما يقول، تكمن المأساة وتضيع الحقوق، حقيقة أن آخر أتى من وراء البحار، ليشارك الفلسطيني صاحب البيت رغما عنه.

هكذا تتراوح شخصية العربي الآخر بين الغياب والحضور والتقزيم والمسخ الحضاري للعرق العربي، وبين الأقلية تارة والجماعات الكثيرة الهمجية تارة، فالعربي في السردية الروائية: شعوري، عاطفي، قبلي متخلف، حساس يميل للثأر، وأوضحت نهلة أحمد (2010) في تحليلها للأحداث أن معظم الأحداث التي وصفها في السيرة وقعت في فلسطين، عندما كان الفلسطينيون يمثلون غالبية السكان، فقد كان التطرق إلى العرب على مدار القصة ضعيفا ومختصرا، كأنهم مجرد أشباح أو ظلال أو كأنهم لا يمثلون إلا وجودا همجيا.

هذا الخطاب الأدبي يعد خطابا استعماريا يعمل علىتثبيت الرواية الصهيونية في صنع الأحداث واختلاق الشخصيات وانتقاء السرديات والأحداثوتغييب الأخرى، وبراعة وصف الشخصيات للأنا والآخر من الواقع والمتخيل، نعد هذا الخطاب امتدادا للخطاب الصهيوني، ولكن بأداة ناعمة تشرعن فكرة إسرائيل ووجودها السياسي والحضاري والثقافي والتاريخي معا.

المبحث الرابع – جدلية النص والخطاب اللغوي.

الخطاب الصهيوني في النص الروائي يركّز على اللغة في الممارسة الخطابية للربط بين تجربة المكان واللغة ولإثبات الوجود التاريخي والقومي، واللغة القومية تعزز سلطة المركز، وقد تشكل خطابا قامعا للخطابات المهمشة قادرة على حمل التجربة والوجود لأهلها وسلبها عن غيرهم.

واللغة حامل للمحمولات الثقافية والتاريخية، ووجه حضاري لدى أدباء وكتّاب الاستعمار، وعوز في نصه الروائي أظهر كثيرا من اللغات تجسدها شخصيات الرواية في ظل تعدد منابت اليهودي ومشاربه، واختلاف جذوره ومرجعياته الثقافية، ولكنه دائمافي خطابه ما بعد الاستعماري ينتصر للغة القومية التي تثبت الهوية التاريخية المرتبطة بالأرض والمكان، تسعى فيها نظريات الاستعماريةوما بعد الاستعمارإلى نقد الفرضيات التي تقوم على الرؤية المركزية، على

اعتبار أنها مصطلح أطلق على كل ثقافة تأثرت بالوجود الإمبريالي، الذي أنتج أيديولوجيات غربية متعالية، ومجّد صفة الإنكار لكل ما هو طرفي هامشيّ، وكانت البداية مع اللغة، التي اعترت أداة السلطة من خلال تمسك الذات بلغة المركز، وتأسيس خطاب ليلائم المكان المستعمَر (الهاشمي، 2006).

وانطلاقا من مقولة : تمسك الذات بلغة المركز، وتأسيس خطاب ملائم للاستعمار؛ نجد سردية عوز تفرّق بين لغة الهوامش ولغة المركز، ويظهر في الرواية عدة لغات لليهود المختلفة أمكنتهم ومنافيهم وثقافتهم، ويبرز أن والده يتقن لغات عدة، ولكنه يصرّ على تعليم طفله عوز اللغة العبرية التي تتصل بحلم الدولة والنهضة، الثقافية والروحانيةالصهيونية " كان أبي مثل العديد من الصهاينة أبناء جيله كنعاني، كان يرغب في أن يولد كل اليهود من جديد أذكياء أقوياء سمرًا أوروبيين – عبريين وليسوا شرق أوروبيين يهود، وقد نفر معظم حياته من (الأيديش) وكان يسميها لغة مختلطة، كان (بياليك) في نظره شاعر المنفى، شاعر يحيّر الأجيال، بينما نبّأظهور(تشرنحوفسكي)بفجر جديد" (عوز،ص، 62).

تتخلى السردية عن لغات الهوامش في ظل إثبات أحقية الأرض والمكان لتثبت اللغة القومية للدولة، ثم ينتصر للغة التي جاءت بمحمولاتها التاريخية التي تعزز الوجود والهوية في أرض الميعاد المزعومة.

هؤلاء اليهود الذين توزعت مشاربهم، إنما يتطلعون إلى بناء ثقافة ملاءمة لحياتهم الجديدة في فلسطين، وهم يصنعون بأشعارهم وكتبهم وخيالاتهم دولة طوباوية، في ظل لغة عبرية حيّة ومعاصرة، منزهة من أي شائبة، عبرية خالصة، نقية وجوهرية، تمثل بصفائها ونقائها روح الدولة الجديدة، التي تطرد الفاسد من الأفكار والقيم والأفكار التي حملها المهاجرون،ولوّنت ثقافتهم وألسنتهم بألوانها، وهذا الأمر دفع والد عاموس عوز إلى أن يفرض على ابنه ألا يتعلم إلا العبرية خشية تلوثه بلغة أو ثقافة غربية، هذه الآفة اللغوية نراها في عائلة عوز انفصاما لغويا، فللتخاصملغته، والتعامل اليومي لغته، والكلام المعيب والمخجل والبذيء لغة أخرى، كما للثقافة لغتها.

نتائج الدراسة

1. سردية عوز الروائية تعيد إنتاج المقولات الاستعمارية الصهيونية تجاه قضايا الصراع المتصلة بالتاريخ والمكان والإثنية، في مرحلة نصوصية تقنّعت بخطاب ضبابي، تحت لغة الاستعلاء الثقافي والعرقي والحضاري للذات اليهودية الصهيونية أمام تقزّم الآخر العربي المغيّب حضاريا وثقافيا إلى حدّ بعيد في الرواية.
2. تكشف القراءة التأويلية لسرديات النص الروائي، وأحداثه وشخصياته وأمكنته ومقولاته، المستعينة بالنظرية الثقافية وأدوات نظريات الاستعمار عن مخاطر (الإزاحة والإحلال) التي تتمثل إزاحةروايات الآخر الفلسطيني العربي ووجوده صاحب الأرض والمكان والتاريخ، وإزاحة الروايات المتعارضة، وتهميشها وإضعاف مركزيتها، وإحلال المرويّات التاريخية للذات اليهودية الصهيونية لتحتل (المركز أمام المهمش) و(الحضاري أمام المتخلف)،(والمعذب الضحية من مهاجري الشتات أمامالعربي) فتتساوى الأحداث وتتقاطع سرديات مجازر دير ياسين مع مجازر الهولوكست، وهي دعوة لتقسيم والأرض مع الأفضلية للمركز اليهودي الطلائعي المثقف المتمدن والمتحضر،والإحلال مكان الأقلية العربية كما تذهب إليه ادعاءات نص عوز التي صنع أحداثها وشخصياتها وأمكنتها من هلوسته الصهيونية وتلافيف عقله ودهاليز مخيلته .

3. يسجل الخطاب انفتاحا نصيا روائيا وتأويليا، مع العالم الغربي والأوروبي، ليصبح النص متعدد الأصوات الداخلية والشخصيات (الجدة شلوميت من شرق أوروبا، الأب من أوديسا ..) والرواة والسراد، وتتقاطع اللغات (لغة العبرية ولغة الإيديش ولغة الأشكناز" مع الانتصار للغة القومية) وتقاطع العرق واللون والحضارة، محدثا هذا التداخل النصي والصوتي خطابا عالميا بإشاراته وعلاماته الثقافية والحضارية لتثبت للعالم أحقية إسرائيل بالأرض والمكان وتغيير الفكر والإنسان، وإزالة الفكرة الاحتلالية الدارجة عند الغرب والعالم أن إسرائيل تقوم على القوة المادية والحربية العسكرية، مقدما صورة أخرى ليهود طلائع مثقفين وكتّاب وأدباء وشعراء صانعي حضارة.
4. اللغة السردية الروائية تحمل ملمحًا ذات صبغة استعمارية: يلحّ الخطاب الروائي على مركزية اللغة العبرية أمام لغة الإيديش لغة آبائه اليهود وأجداده المهجرين من أوروبا، ولغات اليهود الشرقيين الأخرى، وتثبّت السردية اللغة العبرية التي تتصل بالقومية واليهودية والوجود المكاني لهم في القدس، ذلك لأنه يعاني من أزمة وجدلية الانتماء القومي والوطني وإثبات الوجود التاريخي.
5. يعقد نص عوز ثنائية ضدية وخطابا استشراقيا بين (المركز اليهودي والإسرائيلي)(والهامش العربي الفلسطيني) تعلي من شأن المركز ثقافيا واجتماعيا وحضاريا لتثبيت السردية الأحقية التاريخية للصهيونية واليهود في فلسطين، بديلا عن السياسي في ظل الاستعمار التقليدي.

توصيات الدراسة

بناءً على النتائج المعروضة في الدراسة، يمكن تقديم توصيات للبحث العلمي على النحو التالي:

1. ضرورة استكشاف تأثير السردية الاستعمارية على تشكيل الوعي الجماعي في الشرق الأوسط: نوصي أن تقدم الدراسات المستقبلية استكشافاً أوسع لتأثير السردية الاستعمارية على شكل الوعي الجماعي والمقولات السياسية في المنطقة، وخاصة فيما يتعلق بالصراع الإسرائيلي الفلسطيني. هذا سيساعد على فهم أعمق لتأثير الأدب والرواية على القضايا السياسية.
2. دراسة التداخل الثقافي واللغوي: يمكن أن يساعد المقال في دراسة التداخل الثقافي واللغوي الذي يظهر في النصوص الروائية. يجب تحليل كيفية تقاطع اللغات والثقافات وكيف يتم تمثيل هذا التداخل في الأدب.
3. النظر في الأثر على السياسات الثقافية والسوسيوبوليتيكية: يجب أن يتناول المقال الأثر المحتمل لهذه السردية الاستعمارية على السياسات الثقافية والسوسيوبوليتيكية في المنطقة. هل يمكن أن يؤدي هذا النوع من الأدب إلى تغييرات في السياسات الثقافية أو القوانين؟ كذلك لا بدّ من دراسة التأثير الاستشراقي: يمكن أن يساعد هذا المقال في فهم كيف يمكن للأدب أن يصور الآخر بشكل استشراقي وكيف يمكن أن يؤثر ذلك على تصوير المجتمع والثقافة الأصلية.

Abstract

"The Dilemma in Leftist Zionist Literary Discourse and Colonial Theories: Textual Argumentation and Ideology through Amos Oz's 'A Tale of Love and Darkness'" as a model

By Ziad Mohammed Asaad Bani Shamseh

And Nadia Ziad Mohammed Bani Shamseh

The aim of this study is to study and analyze the literary discourse of "Amos Oz," the leftist Zionist writer, and to investigate the crisis of this discourse in the context of textual argumentation and ideology. It takes "A Tale of Love and Darkness" as a model, since it is a Zionist discourse that is described as colonial. The tale entirely embodies a narrative, cultural and ideological work, representing a latent, mysterious, and ambiguous colonial vision associated with colonial and post-colonial contexts charged with cultural, historical, and religious aspects. This discourse seeks to introduce both overt and sometimes covert colonial conceptions. The research problem lies in the deconstruction of this discourse with regard to the Israeli-Palestinian status amid the ongoing conflict over identity, place, history, and heritage. It examines texts with historical and cultural aspects within the framework of the political establishment to reveal linguistic textual aspects and identify the mutual relationship between the text, society, event construction, character development, history, conflict management, and cultural hegemony in colonial and post-colonial era. What we mean by colonization in the Zionist leftist literary discourse which exceeds military colonization to cultural invasion, historical supremacy and cultural hegemony.

The study raises several questions on how leftist Colonialist, Zionist and literary discourse presents a culturally disguised discourse to the reader and the world under the impacts of minor and major narrative events and historical developments in determining the ideology and promotion of the state of Israel. To answer this research question, the study adopted the colonial and post-colonial theory, as well as cultural criticism. The study is divided into two chapters. The first chapter discusses the foundations of reading of Amos Oz's text in the context of colonial theories, while the second chapter focuses on the discourse, dialectics and ideology of the text. Following analysis of the minor and major narrative elements, the study revealed the risks and dangers of (exclusion and substitution). This involves exclusion of the narratives of the "other" Palestinian Arab and their existence and connection to their land, place, and history as well as exclusion of opposing narratives by marginalizing and decentralizing them. Then cultural and historical narratives, of the Zionist Jewish self-entity, surpasses them and becomes (Central before Marginal) and (Civilized before Uncivilized)

Key words: Discourse, Zionism, Text, Ideology, Colonialism.

الهوامش

[1] تتعدد مفاهيم الخطاب في الحقل الأدبي والنقدي، ويمكن أن نشير إلى مفهوم الخطاب الآتي: كل كلام تجاوز الجملة الواحدة، سواء أكان مكتوبا أو ملفوظا. والخطاب بمحمولاته الثقافية والتاريخية والاجتماعية يصبح أكثر عمقا ذلك بأنه شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة والمخاطرة في الوقت نفسه" (البازعي،2005). وهذا يجعلنا نحدد مفاهيم الخطاب ما بعد الاستعماري في أبسط تعبير بأنه ذلك الذي انتهى فيه الاستعمار التقليديّ الشكليّ للأرض والإنسان وأن مرحلة الكولونيالية قد بدأت، وهي جزء من الهيمنة والغزو الثقافي للفكر الإنساني والحضارة والتاريخ واللغة. فالخطاب ما بعد استعماري "خطاب تلتحم فيه القوى السياسية المهيمنة بالمعرفة والانتاج الثقافي" (سعيد،1981ص.44).

[2] للنص مفاهيم عدة تتحاور وتتقاطع فيما بينها بين الكلام والانفتاح والتعالق مع النصوص، ويمكن أن نحدد مفهوم النص بأنه "مدونة حدث كلامي، ذي وظائف متعددة" (مفتاح،1992، ص. 120).

[3] الأيديولوجيا هي تلك "التي لا تدلّ فقط على المعتقدات التي توجد لدى الناس، أو نسق القيم، أو محصلة الأهداف والمعايير، إنما تتضمن كل الجوانب مجتمعة، بالإضافة إلى نظرة الإنسان للأشياء المحيطة به، والتصور الذي يشكله عن العالم، وهي في الوقت نفسه تشير إلى مجموعة الخبرات والأفكار والآراء التي يستند عليها في تقييمه للظواهر المحيطة به"(المسيري،1983، ص. 135).

قائمة المصادر والمراجع

إبراهيم، رزان(2014). **جماليات ما بعد الكولونيالية.** مجلة رابطة الكتاب الأردنيين: عمان العدد2.

إبراهيم، عبد الله (2003). **السردية العربية الحديثة، تفكيك الخطاب الاستعماري، وإعادة تفسير النشأة.** المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء.

أحمد، نهلة(2010). **السيرة الذاتية عند عاموس عوز، دراسة في رواية " قصة عن الحب والظلام"**. رسالة ماجستير، جامعة عين شمس.

أوراد، محمد(2017). **النقد الثقافي قراءة تعاقبية في مقارباته التأسيسية**، مجلة العلوم الإنسانية المجلد 24، العدد الثاني العدد 2 .

بعلي، حفناوي(2007). **مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن**. منشورات الاختلاف: الجزائر

بيضون، عباس (2019).**كل شيء عن عاموس عوز**، موقع مجلة الجمل بما حمل.

بيل، أشكروفت وآخرون (2005). **الإمبراطورية ترد بالكتابة، آداب ما بعد الاستعمار، النظرية والتطبق**. دار أزمنة للنشر: عمان الأردن.

جلانسر، أريك، (2015). **سبع ملاحظات حول الأدب الإسرائيلي في سنوات الألفين.** مجلة قضايا إسرائيلية الصادرة عن مدار المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية. العدد 60.

حمداوي، جميل (2018). **نظرية ما بعد الاستعمار، الأطروحة في خدمة الاستغراب**، مجلة الاستغراب: المغرب، العدد 12.

زين الدين، أحمد(2010). " **قصة عن الحب والظلام" في ترجمة عربية عاموس عوز يُرمّم " ألبوم" العائلة اليهودية المنفصمة.** جريدة الرياض. العدد 17132.

سعيد، إدوارد (2005). **الأنسنية والنقد الديموقراطي**، دار الآداب: بيروت، ط1.

سعيد، إدوارد(1981). **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء**. ترجمة كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية: بيروت.

السعيد، عموري(2013). **الأيديولوجيا/الخطاب/ النص/ نحو مقاربة مفاهيمية**، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجزائر. العدد 38.

عوز، عاموس، (2010) **قصة عن الحب والظلام**، ترجمة: جميل غنايم، منشورات الجمل: بيروت.

العياري، صالح، (1987). **الشعر العربي الصهيوني المعاصر**. دار طلاس: دمشق.

الغذامي، عبد الله(2000). **النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية**. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء: المغرب.

لومبيا،آنيا (2007) في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية،ترجمة محمد عبد الغني غنوم،دار الحوار للنشر، سوريا.

محمد، حسين. (2022). **الفعل الكلامي النصّي عند فان دايك**. مجلة بحوث ميسان، 18(1-35).

المسيري، عبد الوهاب(1983). **الأيديولوجيا الصهيونية: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة**، سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب: الكويت.

مفتاح، محمد(1992). **تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)**. المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء، ط3.

الهاشمي، هشام(2016). **الكتابة المسرحية وأسئلة ما بعد الكولونيالية**. المركز الدولي، ط1.

وغليس، عبد الرحمن (2018)، **اللغة الكولونيالية وأزمة الوعي الشقي عند عاموس عوز**.مجلة اللغة العربية، الجزائر. العدد 41.

يقطين، سعيد(2015). **انفتاح النص الروائي**، المركز الثقافي العربي: المغرب.